بعد الضجة

بقلم : وداد سكاكيني

ضجت بعض الاقلام اللبنانية منذ بضعة اشهر حول القصة الاخيرة للأديب الحاذق الشيخ خليل تقي الدين ، فترامى الى سمعي من بعيد نبأ الضجيج ، اذ كنت في ابانها بمصر أتشوّف الى آثار الفكر والرأي التي تلتمع من صوب بلادي ، فأتنورها ولا احظى بها الا ندرة ولماما .

تساءلت عن سبب اللغط ، وانا اعلم ان ليس من الشرط والحتم ان يكون دليلاً على ضخامة الحديث او عمق الموضوع ورجاحة الهدف ، فما كان كل نبأ او كتاب يثير الجمهور ويهز الاقلام ذا شأن او اثر مهما تحشد له الدعوى . وقد اتفق لي ما اتفق لمن رأى حلقة في درب وحولها ترتفع الاصوات وتزدحم المناكب ويتردد التغامز ، فمضى يستطلع ويسأل ويتلمس الحكاية التي هاجت الوسوسة والنقمة ، وحركت الاقلام لتبيان المسألة ، لكنه ارتد سادراً متبرماً اذ لم يقف على سر الموضوع ولا امسك بحقيقة الخبر ، حتى تقدر لي ان اعود الى الوطن واجتلي مظاهر الحياة الفكرية والثقافية في مجالسها وندواتها ، واتطلع الى آثارها واخبارها ، فوقعت في يدي فيما وقع القصة المتهمة التي هجنها بعض الادباء في لبنان .

قرأت « تامارا » وانا استعيد بخاطري ادب صاحبها ، فلم اجدها متسمة بمياسم القصص الا من قبيل التجاوز والتسامح ، بحثت فيها عن السلسلة الواحدة التي تربطها من اولها الى آخرها ، وكيف كان شخوصها يشعرون ويفكرون ، وما الغاية التي كان على القارىء ان يدركها في نهايتها ، شأن ما يكون من القصص ، فاذا بموضوع « تامارا » لا يحتوي كياناً ولا نسقاً لقصة ذات رأي او فكرة او مشكلة ، وانما هو سرد حكاية تكاد تكون بوليسية او رواية اخبار وحوادث لغانية خالبة كانت تعبث بالقلوب والحفايا ، وتجس انباء السياسة الاجنبية لرجالها المسؤولين في البلد الذي ذهب اليه مؤلف « تامارا » سفيراً ، وقد صوره بلد الرعب والسكون ، ومثابة للمكبوحين والمبهوتين ، كما جعل امره غمة وغيهبا . اما الحوادث المتخطفة في تجسس « تامارا » فقد دارت واحدة بعد واحدة ، ناسجة على هذه الصبية الفاتنة اثواب المجانة والتبذل والخيانة الزوجية ، دون ان ترمي الى عقبى ندامة او توبة وروعة ، فكان في غرضها مرض تتحرر منه العروبة والكرامة وتتحرج اقلامها الحرة من الخوض فيه مهما يكن امرها .

لقد دارت حوادث القصة المزعومة في نطاق موهوم حول رجال السلك السياسي في ذلك البلد البعيد الذي رآه المؤلف حبساً كئيباً رهيباً ، يضرب على الاجانب ان يعيشوا بين قضبانه الحديدية وقد تسلل اليهم الرصد واطبقت عليهم الآذان ، حتى يخيل الى القارىء ان اهله يعانون في حياتهم ضنك المعيشة ودواهي الحكم والارهاب .

وحين قرأت في مطلع الحديث ، وتسميته بالحديث الصحفي اولى ، ان المؤلف عاش في محتواه ثلاث سنوات وفكر فيه عشر سنوات وكتبه في ثلاثة ايام عللت النفس بقراءة دسمة ، لقصة خصبة ممتعة انضجها الزمن وروّى في فكرتها قلم اديب اصيل ، فلم يخرجها للناس الا بعد اناة وتصميم وتحكيم في الخاطر والضمير ، بل حسبت القصة ستكون حولية كحوليات الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى الذي كان ينظم القصيدة في مدى عام ثم ينقحها وينظر فيها بآخر ، ويعرضها على اخوانه وقومه في العام الثالث ، لكن النظرة المجردة الى هذه « القصة » حين يلم القارىء بحوكها وسردها ويحيط بأخبارها السياسية وصورها الجنسية يحس انها كتبت في جلسة او جلستين ، مثلما نقرأ في هذه المدة ، وكما تكتب المقالات الصحافية اليومية ، وان صح التعبير قلت انها قصة « رسمية » وكيف لا تكون بهذا الوصف وصاحبها وزير او سفير وقد حيك موضوعها في بيت سفارة وقام بها اكثر من موظف دبلوماسي ومفوض من حكومته ، و« تامارا » التي عضها الحرمان صدر شبابها ، وضحك لها الحظ في عز تفتحها ، ثم قطب وجهه بعد سنين وتنكر لها فذاقت المر الهوان ، حتى وقفت عمرها وحياتها على اللهو والهوى ، وتسقط الاخبار وتجسس الاسرار دون ملل او انقطاع ، يسخرها لذلك آمر

بيان

تودع دار العلم للملايين ، بهذا العدد ، قراءها في مجلة « الآداب » وتشكرهم على حسن ثقتهم ومعونتهم بعد ان تخلت عنها للدكتور سهيل ادريس الذي اصبح وحده مسؤولاً عما لها وما عليها .

ونحن مطمئنون الى ان « الآداب » ستتابع ، وهي في حوزة الزميل الدكتور ادريس ، خطواتها الموفقة التي تمت لها حتى الآن ، فنتمنى له النجاح والتوفيق .

ويسر دار العلم للملايين ان تلقى قراءها الكرام في كتبها المتوالية كل يوم ، ومجلتها العلمية « العلوم » كل شهر ، ومجلتها الادبية الجديدة « الادب والحياة » التي ستظهر قريباً .

دار العلم للملايين

عنيف من رجال السلطة الخفية فتستجيب لطبعها وتنقل لآمرها ما يكون من انباء السفراء والدبلوماسيين المحاطة بالكتمان والغموض ، والتي تناط بدولهم المعادية لسياسة البلد الذي جاؤوه منتدبين لحكوماتهم مؤتمنين .

فالقصة اذن بما حملت في تضاعيفها وسطورها من شؤون وذكريات ، لم ترم الى هدف مثالي منشود او مغزى روحي نبيل يبصر القارىء بالحقيقة والابداع ، او يمتعه بما احتوت من فن وادب وحوار ، وانما كان اتجاهها منذ البداية الى مغالطة وطعن في حياة الذين عاينهم السفير ، وبالتالي تسفيه السياسة والسلوك في البلد الذي ضم « تامارا » . ومن عجب ان المؤلف لم يجد فيه اعجب ولا اغرب من حياة هذه الفاتنة الحائنة ، فهي لديه حيناً ماجنة عابثة تتحول من يد شاب إلى يد شيخ بعبير هواها وسحر انوثتها لتستل الاسرار من مخابئها ومراقدها ، وحيناً يراها تؤدي رسالة لا يقوم بمثلها الا احرار الوطنيين ونوابغ المفكرين . ه.

ألم تتزوج السفير اليوناني لغاية سياسية تخدم فيها مصلحة بلادها ، ألم تعرض نفسها لاشد الخطر تفانياً في الدس وتفدية بالعرض كما ذكر المؤلف ؟

واندفعت تامارا بهواها ونجواها ، « متنقلة بين عشرات العشاق والمغرمين ، وكلهم من موظفي السفارات ورؤسائها ، وانحدرت في المزالق ، فلم يبق فتى بين الدبلوماسيين لم يشرب معها ويسهر الى الصباح[1] » إلا المؤلف حماه الله ، حتى جاء يوم تجهمت فيه سماء تامارا وقسا عليها القدر ، فقد طردت من سفارة زوجها الذي طلقها وردّ اليها حريتها — أستغفر الله — إباحيتها ، فراحت تندمج في الحياة من جديد على طريقتها المعهودة والحياة مكشرة لها عن نيوبها ، حتى لقيت الفتى الاسباني خوسه راميرس الموظف في مفوضية معادية وكان يحن الى شمس غرناطة وحسان مدريد فاستغلت تامارا نزق الفتى وعبثه واستطاعت ان تستل منه خبراً بعزمه على الفرار من مجاهل روسية الثلجية ومساحاتها الشاسعة الى بلاده الدافئة الجميلة ، وكانت الفضيحة الكبرى بعد يومين إعادة الهارب الى موسكو تحت الحراسة ...

وعادت تامارا الى طبيعتها في التجسس والتبذل والترامي على اي صديق او عشيق حتى لمع في خاطرها ذكر السفير المؤلف وقد سماه « صاحبي » على الطريقة القديمة الدكتور طه حسين ، على ان عميد الادب على حق وتوفيق في هذا الاداء ، اذ هو مستعين بغيره يملي ويجري الكلام تحاوراً مع صاحبه وهو يعني نفسه — اما السفير الاديب او الاديب السفير فقد ادرك انه وحده يستطيع ان يخفف عن هذه الشقية

تامارا ص ٣٥ .

بعض سلاسل

لجنة التأليف المدرسي

بيروت

•

المروج : سلسلة كتب حديثة في القراءة

ستة اجزاء

الجديد في دروس الحساب : سلسلة كتب حديثة في الرياضيات

خمسة اجزاء

الجديد في قواعد اللغة العربية : سلسلة كتب حديثة في القواعد

اربعة اجزاء

الجامحة ويبعث في نفسها الامل والسعادة اذ « كان من دون الرجال جميعاً صديقاً لها صدوقاً ، ينظر اليها لا كمتعة ولذة بل كانسان له نفس وروح ، وكثيراً ما كانت في ماضيات ايامها تضحك ضحكتها المجلجلة قائلة له :

— انت الوحيد الذي لا يحبني !

فيجيبها :

— قد اكون الوحيد الذي يحبك ، ، لاني من قوم يكرهون الآلة ويخشونها ويعبدون الروح ، وقد يكون في ذلك سر قوتهم وسر ضعفهم[1] »

ومن قال للمؤلف الاديب ان قومه يمقتون الآلة ويخافونها. انهم وهم يبنون حياتهم الجديدة اشد ما يكونون توقاً اليها والى التمرس بها الى جانب عنايتهم بالروح وإيثارهم فضائلها ، فهم يعرفون ماذا تصنع الآلة ، ولم تخف عليهم سطوة المادة ، وقدرتها ، فكيف يتجهمون لهما وهم يريدون الحياة حرة عزيزة فلا بد لضمانهما من القوة الروحية والمادية .

وكيف غاب عن السفير الاديب ان البلاد التي صورها مراصد للحرية والدبلوماسية ، وسجوناً للفكر والتشريد هي من اكثر بلاد الله تقديراً للمواهب وذويها ، ومن يدري فقد يكون ادب السفير من اسباب الصيت الذي تمتع به في حياته وسفارته بذلك البلد البعيد .

على ان الذي عنانا من هذه القصة هو الجانب الفني والانساني ثم اللغوي . ان موضوع « تامارا » قد جانبه فن القصص فخلا من الحبك الموسوم بدقة التعبير وانسجام الفكر والتصوير ، واين التحليل للنفس والشعور في هذه الاخبار والحوادث التي جاءت سرداً وترديداً ؟

اما الجانب الانساني ففيه حيف ودليل على رفق السفير بالجاسوسة العابثة ، إذ احب روحها وكان لها الصديق وقت الضيق ، فقد اهتدى الى مقرها بعد المحنة الأخيرة واهدى اليها « باقة من زهور القرنفل النادرة ومبلغاً من المال »[2] ، ثم نصحها بأن لا تيأس ووعدها بأن يكتب قصتها التي عاشها ثلاثة اعوام ...

وبر الاديب بوعده ولو متأخراً ، ففكر فيها عشر سنوات ثم كتبها في ثلاثة ايام ، فظهر عليها طابع السرعة في ادائها الركيك ولغتها الواهية ، ولم يلتمع فيها سوى تصوير التجسس والانحراف والتعبير عن المفاتن الظاهرة في جسم « تامارا » مما يغري المراهقين ويرضي الناشرين .

ولولا ان المؤلف الاديب عاش قصته هذه في بلادها لحسبناها منتزعة من الادب الروسي الذي غاص فيه قبل ان يعرف موطنه ومأتاه وقد تجلى في مجموعته القصصية «الاعدام» وغيرها .

فالاديب البارع الشيخ خليل تقي الدين الذي عرفه قراؤه قصصياً يعتمد على الاقتباس والتأليف اكثر مما يعتمد على الابتكار والتصنيف ، يجده القارىء في هذه القصة على سجيته يقدم لوناً جديداً من ادبه الطريف ، وهي اي القصة — ان خابت ونبت في فنها وموضوعها ، فقد تكون نجحت في مرماها ، والغاية تبرر الواسطة كما يقولون — ولعل الاديب الحاذق يعاود قراءه في سوانح التجاوب والاستجمام بما هو خير وابقى .

دمشق — وداد سكاكيني

دار بيروت ـ للطباعة والنشر

بناية العازارية ، تلفون ٣٠٣٥ بيروت ـ لبنان

صدر حديثاً

١ ـ الادب الاسباني

الكتاب الثاني

من مجموعة الآداب العالمية

تأليف جان كامب — ترجمة بهيج شعبان

٢ ـ هذه هي الشخصانية

الكتاب التاسع

من المجموعة العقائدية

تأليف عمانوئيل مونيه — ترجمة تيسير شيخ الارض

١ تامارا : ص ٤١ .

٢ تامارا :ص ٤١ .